تجارة الرق بين الواقع البشري... والمنظور الإسلامي

محمد زين نور محمد

محاضر بجامعة أنجمينا – كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية – قسم التاريخ

المستخلص

بعد هذه الدراسة المستفيضة عن ظاهرة الرق والتي تناولنا فيها العلاقات العربية الإفريقية من خلال ظاهرة تجارة الرقيق والعوامل التي أثرت في إزدهار وضعف تلك التجارة، وقد استهل البحث على ضعف هذه الصلات وتمثلت مشكلة البحث في استغلال الدوائر الاستعمارية لتجارة الرقيق، كما جاءت أهدافه في إبراز دور تجارة الرقيق التي مارسها الاستعمار ، وخلص البحث لنتائج من أهمها:أن الاستعمار أوقع بين الأفارقة والعرب بوقيعة باتهام العرب بالمسئولية التاريخية عن هذه التجارة.وأوصى البحث بدراسة هذه الظارة في كل البلدان الإفريقية.

Abstract

After this extensive study on the phenomenon of slavery, in which we dealt with Arab-African relations through the phenomenon of the slave trade and the factors that affected the prosperity and weakness of that trade, the research began on the weakness of these links, and the research problem was the exploitation of the colonial circles of the slave trade, and its objectives came to highlight the role of The slave trade practiced by colonialism, and the research concluded with results, the most important of which are: that colonialism led to the fact that the Arabs were accused of historical responsibility for this trade. The research recommended studying this phenomenon in all African countries

---

بعد تناولنا للعلاقات العربية الإفريقية من خلال ظاهرة تجارة الرقيق والعوامل التي أثرت في ازدهار وضعف هذه الصلات، تبين الآتي:

1. أن العلاقات العربية الإفريقية بحاجة إلى جهود مكثفة وعلى مختلف المستويات والأصعدة للنهوض بهذه العلاقة إلى المستوى الذي يعيد لها وجهها المشرق،بعيداُ عن الشكليات والمزايدات والاتفاقات الفوقية والدونية لتكون علاقة ثقافية بما تحمله هذه الكلمة من مضمون وبما تحقق مصلحة الطرفين.
2. أن تجارة الرقيق ظاهرة عالمية اشترك فيها جميع شعوب العالم ؛ حتى الأفارقة أنفسهم،بل شملت جميع البشر الأبيض والأسود.
3. من الحقائق أن ممارسة تجارة الرقيق لم تكن قائمة على قضية مسلمين وغير مسلمين ولا قضية عرب وأفارقة.
4. أن ظاهرة تجارة الرقيق ليست بظاهرة حديثة ولم تقتصر على شعب معين أو من منطقة معينة ؛ بل شكل مجتمعاً بأكمله ومرحلة من مراحل تطور البشرية يشغل حقبة زمنية كبيرة تمتد من نهاية المجتمع البدائى وحتى ظهور المجتمع الاقطاعى المبكر.

ولعل هذا البحث يلقى الضوء على العديد من جوانب تجارة الرقيق، ومن ثم يفتح المجال للدراسة بصورة عميقة.

مقدمة:

في حلقة سابقة (تجارة الرق وأثرها على المجتمعات الأفريقية) تحدثنا عن العديد من الجوانب التي تأثر بها الإنسان الأفريقي، ومن هذه الآثار، الآثار الاجتماعية والخلقية والثقافية والسياسية والاقتصادية.

مشكلة البحث:

- استغلال الدوائر الاستعمارية لمسألة تجارة الرقيق للوقيعة بين الأفارقة والعرب، باتهام العرب بالمسؤولية التاريخية عن هذه التجارة، لا سيما في ظل الإسلام.
- فإن ممارسة هذه الظاهرة هو ما تسبب في تعويق تنمية الموارد البشرية في إفريقيا.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى:

1. إبراز دور تجارة الرقيق التي مارسها الاستعمار على الإنسان الإفريقي وعلى عقله وكيانه المعنوي.
2. معرفة ما قامت به هذه التجارة من تأثير كبير على طبيعة العلاقة القائمة بين إفريقيا والدول التي ترتبط معها بعلاقات مختلفة.

ونود في هذا البحث مقارنة بين الممارسة البشرية في هذه الظاهرة وتوجيه الإسلامي الذي يطلب منا الإسلام، لإبراز عدل الإسلام وإنصافه في التعامل مع هذه القضية الحساسة في المجتمعات وذلك من خلال عناصر التالية:

1. تجارة الرق تاريخه ومنشؤه.
2. العقل الأفريقي والمسئولية عن تجارة الرقيق والعبودية.
3. العرب ودورهم في تجارة الرقيق.
4. الأفارقة ودورهم في تجارة الرقيق.
5. الإسلام..ومعالجته في قضية الرق.
6. الخاتمة والنتائج.

ومن الجدير بالإشارة أن قضية تجارة الرقيق الإفريقي، تمثل سجلاً من أحلك السجلات في تاريخ البشرى، صحيح أن الإفريقيين كانوا يستعبدون بعضهم بعضاً، وأن التجار العرب كانوا يمارسونه تلك التجارة سنوات عديدة إلا أن اشتراك دول أوربا في هذه التجارة منذ منتصف القرن الخامس عشر تقريباً قد ازداد من حدته وبشاعة الأسلوب ومدى ممارسة هذه العملية على حدٍّ لم يعرف حتى الآن في تاريخ الرق، ومع ذلك حاول الأوربيون إفساد العلاقة بين العرب والأفارقة وهو ما يقصد معالجته في هذا الإطار.

وأنوه بهذه المناسبة بالنداء جميعاً بأن يفيقوا من غفلتهم وأن يميزوا بين الغث والسمين وان يعلموا أجيالهم بان قوتهم في اتحادهم وأن يحافظوا على تعزيز صلاتهم وتقويتها. فضمان قوتهم مكفول طالما أن قوامها الاحترام المتبادل وخدمة القضايا المصيرية الواحدة.

تجارة الرق تاريخه ومنشؤه:

الرق ظاهرة قديمة عرفتها الدول والشعوب منذ أقدم العصور، وهو إيقاع بشر كانوا أحراراً في براثن العبودية وسلبهم حريتهم والتصرف بهم بيعاً وشراءً كأنهم مواد أو حيوانات يمتلكهم السيد ويمتلك حق التصرف فيهم.

وكان الرق معروفاً في القديمة وعند الفرس والإغريق وعند الرمان واليونان وفي الصين وفي غيرها من الأمم والأقطار (أ.د: شوقي عطا الله، ود: عبد الله عبد الرزاق، تاريخ شمال وغرب أفريقيا الحديث والمعاصر، ص 223.)، وذكر في الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل، وكانت (هاجرة) أم إسماعيل عليه السلام جارية أهداها ملك مصر (لسارة) امرأة إبراهيم عليه السلام وهي أهدتها لزوجها فسراها وولدت إسماعيل عليه السلام

لقد قسم فلاسفة اليونان الجنس البشرى إلى قسمين: حرٌّ بالطبع ورقيق بالطبع، وقالوا إن الثاني ماخلق إلا لخدمة الأول، وجعل أرسطو الرق نظاماً ضرورياً ؛ فيرى أن الغرض الذي ترمى إليه الدولة إنما هو مساعدة المجموعة لتحيى حياة سعيدة وأنه من الضروري اتخاذ الأرقاء للقيام بأعمال الدولة التي تستدعي مجهوداً جسمانياً لذلك اتخذ اليونانيون الرق من أسرى الحروب للعمل الجسماني في الدولة وتقلدوا هم مناصب الهامة وعضوية المجالس الدستورية (د: حميد دولاب، الجذور التاريخية للصلات العربية الأفريقية، ص82.).

أما الرومان فعلى الرغم من اعتقادهم أن الناس خلقوا أحراراً إلا أن الرق في نظرهم هو نتيجة الأسر أو السبي أو الميلاد أوالدين أو الفرار من الجيش. وقد اشتهر الرومان بتقنين القوانين، وكان المبدأ السائد عندهم أن الرقيق يعتبر شيئاً لا شخصاً وعلى هذا فليس له حقوق كحقوق الحر،أي

ليس له الحق في تكوين أسرة واتصاله بالنساء لا يعتبر قانونياً وإنما أمراً واقعاً، وليس من حقه الامتلاك أو الاستدانة أو الوراثة،شأن الرقيق كشأن الحيوانات والجماد التي يمتلكها السيد ويقال إن قيصر روما عندما فتح بلاد البنغال استولى على مليون أسير وضرب عليهم الرق،ولذلك هبط سعر الرقيق حتى صار الواحد منهم لا يساوى أكثر من عشرة قروش بالعملة المعمولة في وقتها (محمد عبد الغني سعودي، قضايا أفريقيا، ص93.).

ولكن تجارة الرقيق التي مارسها الأوربيون بعد أن اكتشفوا سواحل القارة الأفريقية فاقت كل حدٍّ عرفته البشرية من قبل ؛ فالرق قديماً محدودة الأثر، وكان مفهومه مغايراً تماماً لما تطور إليه الأمر في القارة الأفريقية وفي غربها بالذات، خاصة في الفترة ما بين القرن الخامس عشر حين بدأت معرفة الأوروبيين بالسواحل الغربية للقارة والقرن التاسع عشرة، حين بدأت الأصوات تندد بهذه التجارة البشعة وتطالب بوضع حدٍّ لها.

وكان الاسترقاق في الماضي يتمثل في استخدام أسرى الحروب أو غيرها – كما سيأتي- في أغرض ألإنتاج الخاص ولمدَّة محدودة، وكان العبد عادة تحفظ له حقوقه وآدميته وكرامته وإنسانيته حتى إن بعض العبيد كانوا يفضلون البقاء في خدمة سادتهم بعد أن يُسمح لهم باسترداد حريتهم (د: حميد دولاب، الجذور التاريخية للصلات العربية الأفريقية، ص82.)

وأما منشؤه فإنه يعود إلى عدة أسباب منها:

1. الحروب بين القبائل والدول، فإذا حاربت جماعة من الناس جماعة أخرى، وعَلَتها قهراً استرقت نساءها وأطفالها.
2. الفقر، فكثيراً ما كان الفقر يحمل الناس على بيع أولادهم رقيقاً للناس.
3. الاختطاف بالتلصص والقرصنة، فقد كانت جماعات كبيرة من أوربا تنزل إلى أفريقيا، وتخطف الزنوج الأفارقة وتبيعهم في أسواق النخاسة بأوربا، كما كان القراصنة من البحارين الأوروبيين

يتعرضون للسفن المارة بعرض البحر ويسطون على ركابها، فإذا قهروهم باعوا هم في أسواق العبيد بأوربا وأكلوا أثمانهم (الجزائري ؛ الشيخ أبوبكر جابر،منهاج المسلم، ص568.).

العقل الأفريقي والمسئولية عن تجارة الرقيق والعبودية:

يتعامل العقل الأفريقي مع مسألة تجارة الرقيق والعبودية بحساسية شديدة لها ما يبررها، وقد استغلت دوائر غربية استعمارية هذا الأمر للوقيعة بين العرب والأفارقة باتهام العرب بالمسئولية التاريخية عن تجارة الرقيق والعبودية وخاصة في ظل الإسلام.

وقد انقسمت النخب الأفريقية بين مدافع عن وجهة النظر الغربية وبين مهاجم لها، ونطرح بهذا الخصوص ثلاث قضايا مهمة:

- القضية الأولى: أن هناك اتفاقاً أفريقياً وعالمياً على أن أخطر تجارة للرق مورس في أفريقيا وأكثرها تأثيراً على القارة هي التجارة الغربية الأوروبية وخاصة عبر المحيط الأطلنطي منذ فترة الكشوف الجغرافية وبناء العالم الجديد في الأمريكيتين.
- القضية الثانية: أن الاستعمار الأوروبي للقارة كانت جريمة مارسها الأوروبيون في أفريقيا، ولا بد أنيتم الاعتذار عنها ودفع التعويضات المناسبة من أجل تنمية القارة، ولكي لا تتكرر هذه المحاولة مرة أخرى.
- القضية الثالثة: أنه ليس من المصلحة الأفريقية اتهام أطراف عربية وأفريقية بهذه المسئولية، وإنما الأفضل اتخاذ قرار يصدره الإتحاد الأفريقي بهذا الشأن يضع حداً فاصلاً لوأد محاولات الوقيعة بين الطرفين بسبب هذه المسألة، ويحفظ التضامن الإستراتيجي بين الأفارقة والعرب ويجنب حركة الوحدة الأفريقية من أن تضرب في الصميم (أ.د: محمود أوبو العينين، العقل الأفريقي والعبودية، المؤتمر الدولي، الإسلام في إفريقيا، 26- 27 نوفمبر2006م، الكتاب السابع ص159.).

وفيما يلي عرض مختصر لهذه القضايا أو الأمور الثلاثة:

- الأمر الأول: الإتجاهات المروجة لمسئولية العرب عن الرق في أفريقيا، ثمة إتجاهات قومية سواء نشأت في أوساط السود الأمريكيين وأفارقة المهجر، تجد جذورها في بعض مفكري الأفارقة، كما تجد سنداً وتعاوناً من الجماعات الضغط الأمريكي، وقد برزت هذه الإتجاهات بشكل ملحوظ منذ أوائل السبعينات من القرن العشرين كإتجاه لا يثق بالعرب، إلا أنها خضعت للتسييس منذ أحداث 11 سبتمبر 2001م،ووجدت لها قضايا مشتركة مع جهات معادية للعرب،وخاصة قضية السودان، حيث وقفت الأطراف العديدة ضد السودان وحصلت ما حصلت، ومثلت إتجاهاً يعمل على دفع الإدارة الأمريكية لتغيير سياستها تجاه السودان لتكون أكثر تشدداً منذ عام 2001م، ومن أبرز رؤى هذا الإتجاه أن العرب في الشمال الإفريقي، وهم شعبٌ غريبٌ ساهم في تدمير أفريقيا مثل الغرب وأنهم مذنبون.

وقد عبرت الحركة المناهضة للعرب عبرت عن نفسها في مبادرتين جديدتين:

الأولى: مبادرة المطالبة بتعويضات من الجامعة العربية نظير ممارسة العرب العبودية وتجارة الرق في القارة.

الثانية: هي التحرك لمعاقبة السودان عن الجرائم التي ارتكبت في جنوب السودان ؛ لأنهم يستهدفون تقسيم السودان.

وفي أفريقيا نفسها، ظهرت الإتجاهات المعبرة أكثر عن التحرر الثقافي الإفريقي من الهيمنة الغربية والاستعمار الجديد، ومن أبرز زعمائها (سنغور- موبوتو سيسيكو) ووجدت نماذج لها في تنزانيا وتشاد وغيرها ؛ حيث تستبدل الأسماء الغربية بأسماء أفريقية، وتفضل أساليب الحياة الأفريقية تتحامل أحياناً على العرب،ووصل الأمر إلى حدِّ المطالبة بمنظمة إقليمية لأفريقيا السوداء كبديل عن منظمة الوحدة الأفريقية (المرجع السابق،المؤتمر الدولي، الإسلام في إفريقيا ص 160.).

وقد استمر هذا الإتجاه الأفريقي المتحامل على العرب، تغذية الكتابات والدعاية الغربية المناهضة، ويقسمون أن هناك أفريقيان، وليس أفريقيا واحدة، أفريقيا شمالية عربية إسلامية وأفريقيا

جنوبية زنجية سوداء، وهذا في حدِّ ذاتها ينقصها الحقيقة، لأن أفريقيا السوداء أغلب سكانها من المسلمين، وهنا دعوات أن أفريقيا جنوب الصحراء هي واسعة وكبيرة وكافية أن تعيش بدون الشمال، وعليه لابد من المطالبة بتعويضات من العرب.

وفى نفس الوقت، هناك الإتجاه القوي بين الباحثين ومفكرين الأفارقة في أفريقيا أو المهجر وهم لا يؤمنون بهذه الرؤية، ومن أبرز هم (مالكوم اكس) وهو يرى بأن الرق مسألة تعبير عن تفوق عنصر على الأخر، شمل العرب في شمال أفريقيا، غير أنه اعتبر المسألة مسألة ماضي، وركز (مالكوم) على العنصرية باعتبار ذلك أكثر أهمية وأشدَّ مدعاة للاهتمام، يضاف إلى ذلك مطالبة بحركة جامعة أفريقيا تشمل أفريقيا الشمالية، وركز على مطالبه في التعويضات من الغرب وليس من العرب ؛ لأن تجارة العبيد الغربية كانت أسوأ وأخطر وأشدّ تجارة الرقيق مورست ضدّ أفريقيا على وجه الإطلاق.

- الأمر الثاني: من المسئول عن العبودية في أفريقيا ؟ تتلخص المسألة في أن المؤرخين والمراقبين يُجمعون على أن أفريقيا تعرضت لتجارة الرقيق من قبل ثلاث جهات رئيسية:

الأولى: تجارة الرقيق الغربية عبر المحيط الأطلنطي والتي أخذت العبيد ونقلتهم بالقوة إلى العالم الجديد، حيث تم خطف ونقل وقتل ما بين (أربعين إلى مائة مليون) مواطن أفريقي إلى العالم الجديد وأوربا من خلال هذه التجارة البغيضة (المرجع السابق، المؤتمر الدولي،الإسلام في إفريقيا ص162.).

الثانية: تجارة الرقيق الشرقية حيث تم أخذ العبيد إلى مناطق ودول الشمال الأفريقي وشبه جزيرة العربية والأنصاف يقتضي أن نقول هذا، فقد انتقد بعض الأفارقة الانتقائية التي تستثني تجارة الرقيق الأفريقية والداخلية والعربية،ولا تزال تمارس هذه الظاهرة في بعض الدول الإفريقية مثل (مالي،بنين، النيجر، موريتانيا...).

الثالثة: التجارة الأفريقية الداخلية للرقيق، حيث تم الاتجار بالرقيق الأفريقي داخل أقاليم أفريقيا جنوب الصحراء، ونقلوا من أقاليم لأخرى، وبلغت ذروتها عام 1850م فيما يسمى بالتجارة الأهلية.

- الأمر الثالث: التحيز ضد الشمال الإفريقي والعرب أمر غير مبررة: إن تجارة الرقيق التاريخية من الجنوب للشمال عبر الصحراء الكبرى لا يمكن أن تعتبر تجارة خارجية شانها شأن التجارة عبر الأطلنطي، بينما الاتجار في الرقيق عبر أقاليم الجنوب المختلفة (جنوب الصحراء) تعد تجارة داخلية أو أهلية.فلماذا تعد تجارة الرقيق داخل السودان تجارة شرقية، ولا تعد تجارة داخلية أفريقية ؟ فإذا كانت الداخلية للرقيق الأفريقي تعتبر شكلاً غير ضارة من وجهة النظر الإفريقية، فلماذا لا تعتبر الممارسات داخل القارة كلها غير ضارة.

إن السكوت عن التجارة الأفريقية الداخلية للرقيق يتطلب السكوت عن الاتجار في أفريقيا كلها، سواء من جنوبي الصحراء أو شمالي الصحراء (.د: شوقي عطا الله ود: عبد الله عبد الرزاق، تاريخ شمال وغرب أفريقيا الحديث والمعاصر، ص 228.). ومزيد من التوضيح في الفقرات التالية.

العرب ودورهم في تجارة الرقيق:

والحقيقة أن معظم الأمم والحضارات قد عرفت الاتجار بالرقيق كما عرفته القبائل الأفريقية القديمة كذلك، وكان الأساس فيه أسرى الحرب، سواء كانوا من السود أو من البيض، وقد اشترك العرب كغيرهم في هذه التجارة، خاصة في شرق أفريقيا، وفي وسطها، فيجب إرجاع الظواهر إلى أسبابها وتحليلها وعدم الاتخاذ من هذه الظاهرة التي ولَى زمانها أداة للعداء والمساس بجوهر العلاقات العربية الأفريقية وتوفير الفرصة للقوى المعادية للعرب والأفارقة في الدس والتشويه والطعن بهذه العلاقة التاريخية والتراث العربي الأفريقي المشترك، وخاصة عندما يحصل خلاف ما بين دولة عربية وأخرى أفريقية، يتم التفتيش في زوايا الماضي عن قضية يمكن من خلالها اتهام الطرف الأخر بالإساءة إلى هذه العلاقة فتبرز إلى الوجود قضية تجارة الرقيق وتحتل موقع الصدارة في تبادل

الاتهامات بعد تغذيتها بالمفاهيم العنصرية من قبل الدوائر والعناصر الاستعمارية ذات المصلحة بعرقلة تطور العلاقات العربية الأفريقية وابتعاد العرب والأفارقة عن ذلك التاريخ وذلك التراث المشترك الذي ضربت جذوره بعيداً في أعماق التاريخ البشري ومازالت آثاره قائمة حتى يومنا هذا.

فالعبودية كما أسلفنا مارستها كل الشعوب على نفسها وعلى غيرها من الشعوب الأخرى في مراحل تاريخية معينة، وعلى هذا الأساس يجب أن نبتعد عن روح التبرير والتستر وعن مجافاة الحقائق التاريخية كون العرب واحد من تلك الشعوب التي مارست هذه التجارة في تلك الحقبة الزمنية.

لكن العرب اختفوا عن نظائرهم من الشعوب بالسمة الإنسانية التي لازمت تجارة الرقيق عندهم،إن التجار العرب وإن مارسوا تجارة الرقيق الأسود لكنهم لم يحرفوها كما فعل الأوربيون الذين احترفوا هذه التجارة لعدة قرون، فلم تكن تجارة الرقيق عند العرب واسعة النطاق (المؤتمر الدولي، الإسلام في أفريقيا ص164.). وهذا لا يعني إخراجهم من هذه الجريمة، ولكن نود أن نحمل المسئولية قدر ما ارتكبوا من هذه الظاهرة.

نعم لا يختف نظام الرق عند العرب منذ الجاهلية عنه في الأمم الأخرى؛ فقد كان الرق في الجاهلية نتيجة الأسر في الحروب ويجوز في تلك الحقبة الزمنية استرقاق العربي للعربي بخلاف ما كان عليه الرومان الذين كانوا يحرمون استرقاق الروماني للروماني.

وجرت العادة أن يغدو ابن الرقيق رقيقاً وكان الأرقاء في الجاهلية محرومون من كافة الحقوق المدنية ومن التصرف في شئونهم الخاصة (د. حميد دولاب، الجذور التاريخية للصلات العربية الإفريقية، ص68.).

وفي القرن الثالث الهجري ((التاسع الميلادي)) تم نقل الألوف من العبيد الأسود المستجلب من شرق أفريقيا لاستصلاح الأراضي في جنوب العراق في سهول البصرة لكسح السباخ عنها وجعلها صالحة للزراعة والإستفادة من الأملاح المتجمعة، ونتيجةً لاستغلال الرقيق البشع ووضعهم السيئ

وأعدادهم الكبيرة،فقد قاموا بثورة الزنوج المعروفة بقيادة على بن محمد المعروف بصاحب الزنج والتي استمرت أربعة عشر عاماً وأوشكت أن تقضي على كيان الدولة العباسية (د: حسن إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، ص36.).

ويذكر ابن خلدون: أنه عقب استيلاء الزنج على الأهواز سنة 256 هجرية فخاف أهل البصرة وافترق كثير منهم إلى البلدان (عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص75).

إن ثورة الزنج لم تكن منظمة ولم تأت ببرامج من الإصلاحات الحقيقة ولم تكن حتى لتهدف إلى إلغاء الرق ؛ فكانت ثورة سياسية بامتياز أي صراع من أجل السلطة واجتماعية من أجل تحسين وضع إحدى الطبقات ألا وهي طبقة العبيد التي اعتبرت عن تمردها ورفضها للاستغلال والاضطهاد التي كانت تعاني منه العبيد في تلك الحقبة الزمنية (تاريخ ابن خلدون، المجلد الثالث،ص640).

فلو عدنا إلى العصر العباسي الأول الذي تعددت فيه أجناس الرقيق عند العرب أي أن الرقيق لن يقتصر على الرقيق الأسود الذي يجلب من أفريقيا ؛ بل شمل الرقيق الأبيض كالصعالقة والأتراك والروم، وكانت قصور الخلفاء والأمراء والعظماء والأغنياء تأوي الكثير من الرقيق وعلى الأخص الجواري اللائي كن من أجناس مختلفة، تختلف في الطباع والعادات واللغات.

فقد كان عند الرشيد زهاء ألفي جارية وكان للمتوكل أربعة آلاف سرية (الجذور التاريخية للصلات العربية الإفريقية، ص72.)، ولم ينظر الخلفاء العباسيون إلى الأرقاء نظرة امتهانٍ وازدراء بدليل أن كثيراً منهم كانوا أبناء أمهات وقعت في أيدي آبائهم عن طريق الاسترقاق ؛بل إن بعض الخلفاء وكبار رجال الدولة كانوا يتخذون الإماء من غير العرب ويفضلونهم أحيانا على العربيات لجمالهن.

وقد قام الرقيق على اختلاف أنواعه بأعمال كثيرة في الدولة الإسلامية واشتركوا في الحياة الاجتماعية؛ فقد عملت فئات منهم بما فيهم الزنج في خدمة قصر الخلافة وضمّ الجيش العباسي طائفة كبيرة من الفرس والترك الزنج، ووصل كثير من المعتقين إلى مراكز سامية كقيادة الجيش مثل

مؤنس الخادم في العراق وجوهر الصقلي في المغرب ومنهم من حكم الولايات ككافور الأخشدي (أحمد أمين، ضحى الإسلام، الجزء الأول،، ص87.).

مما سبق ذكره من المعطيات والأدلة في الفترات الزمنية المختلفة أن العرب ليس وحدهم مَن مارس تجارة الرقيق وإن كان مساهمين فيه؛ بل سبقتهم بذلك العديد من الشعوب والأقوام في ممارسة تجارة الرقيق على الصعيد العالمي وفي أفريقيا بشكل خاص كالفراعنة واليونان والرومان بما فيهم الأفارقة أنفسهم.

الأفارقة ودورهم في تجارة الرقيق:

فلا يمكن الحديث عن أفريقيا وتجارة الرقيق دون العودة إلى ذلك الماضي المأساوي التي امتدت لعدة قرون ؛ حيث كانت حقيقة سائدة في أفريقيا ولم تنته إلا في نهاية القرن التاسع عشر، بل بشكل نهائي في بداية القرن العشرين، فقد قبض على عشرات الملايين من البشر وقيدوا وسيقوا قسراً وبيعوا للرجل الأبيض فأصبحوا رقيقاً.

ولم ترتكب في أية مكان آخر من المعمورة أو في وقت آخر جرائم تماثل هذه الجرائم في فظاعتها والتي ارتكبها الأوربيون بحق تلك الشعوب الأفريقية المسالمة. ولم تتعرض أية شعوب أخري لمثل هذه القسوة وهذه المجازر الوحشية التي لم يعرف التاريخ البشري مثيلاً لها من قبل.

إن العديد من المصادر التاريخية إلى أن السكان المحلين في أفريقيا كانوا يسترقون بعضهم البعض؛ وذلك أن الحروب التي كانت قائمة بين القبائل الأفريقية مصدراً كبيراً للرق فيما بين الأفارقة أو فيما يبيعونه من أسراهم للعرب وللأوربيين.

لم يعرف الرق عند الأفارقة وهم في حالاتهم البدائية أو في حالة الترحال والتنقل البدوية ؛ ولكنه عندما استقرت مجموعات منهم دعت الحاجة للرقيق ليقوم بالأعمال الزراعية، ومثلُهم مثل الشعوب الأخرى، وكان أسرى الحرب أول مَن استرقوا، وهناك نوع اختياري عُرف أفريقيا برق الحماية، وهو أن يحمى الشخص المستضعف بشخصية قوية لتحميه ضد استرقاق القوة، ويقوم هذا المستضعف بخدمة مَن يحميه بشكل طوعي واختياري، كما عرف كذلك رق المدين والدائن،

وهو أن يسلم المدين نفسه للدائن ليخدم عنده فترة محدودة تساوي قيمتها مقدار ذلك الدين الذي عجز عن تسديده.

وتختلف معاملة الرقيق من مكان إلى آخر ومن عبودية إلى أخرى، فأسير الحرب من قبيلة أخرى قد يعامل معاملة سيئة، يمكن أن يضطهد أو يباع أو يضحى به قرباناً للآلهة.

أما أولئك الذين أصبح عملهم ضرورة اقتصادية للعائلة فإن وضعهم الاجتماعي والاقتصادي جيد، فقد تعطى لهم قطعة أرض لزراعتهم الخاصة ويرتبطون بأفرادها العائلة حتى يصعب التمييز أحياناً بينهم وبين أفرادها الأحرار، وبمرور الزمن يصبحون جزءاً منها، وهناك حالات غير قليلة يتزوج فيها الرقيق من الأحرار ويأخذ حريته ويتمتع بنفس المكانة والاعتبارات التي تتمتع بها العائلة التي تزوج منها (أحمد أمين، ضحى الإسلام، الجزء الأول، ص87.).

فمنذ بدأت تجارة الرقيق في إفريقيا وكانت تزداد حدّة ووحشية، وكانت تأثيرات تلك التجارة مختلفة ومتباينة على جميع الممالك والإمبراطوريات التي ظهرت في مناطق غرب إفريقيا خاصة، كما أثرت كذلك على جميع الولايات الصغيرة والمشيخات القبائلية التي كانت تستوطن تلك المناطق دون أن تكون في شكل دولة ذات حكومة مركزية ؛ فالدول والممالك والإمبراطوريات الإفريقية القوية كانت ذات مصلحة لهذه التجارة حيث استطاعت أن تحقق ثراءً واسعاً من تجارة العبيد بينما عانت الممالك والولايات الصغيرة من هذه التجارة أشدَّ عناءً، فقد تعرضت للغزو والهجمات المستمرة،

وتم أسر قبائل بأكملها ورحلوا مكبَّلين بالقسر والقوة إلى السواحل ليباعوا عبيداً لمن يشترى من التجار الأوروبيين الذين كانوا يكدِّسونهم في السفن ليشحنوا إلى دول أوربا وإلى العالم الجديد في الأمريكيتين، وتمتد أصابع الاتهام في ممارسة هذه التجارة والتعاون مع مَن مارسوها إلى مملكة (بينين) والتي تسمى ((بمملكة الدماء)) ففي منتصف القرن السادس عشرة كانت مملكة بنين تسيطر على مناطق واسعة تمتد من دلتا نهر النيجر حتى منطقة مدينة (لاغوس) الحديثة، وكانت

هذه المنطقة إحدى المناطق الرئيسية التي تهبط فيها المستعمرون الأوروبيون الذين يبحثون عن مناطق لاقتناص العبيد، وقد اتخذ البرتغاليون من مملكة بنين محطة لممارسة تجارة العبيد بعد أن أبرموا معها الاتفاقيات التي تبيح لهم ممارسة هذه التجارة المشينة (احمد إبراهيم دياب، لمحات في التاريخي الإفريقي الحديث،ص85.).

وعلى هذا الأساس قام البرتغاليون بتزويد شعب بنين بالبنادق والأسلحة النارية، وطلبوا منهم الانطلاق إلى مناطق الغابات والمناطق الريفية الداخلية لمحاصرة الأهالي واصطيادهم أحياءً وسوقهم إلى ساحل خليج غينيا ليباعوا هناك بالجملة، وليم تصديرهم إلى البرتغال حيث يباعوا من جديد بالجملة أو فرادى في النخاسين.

وبالفعل انطلقت جيوش بنين المزودة بالأسلحة النارية لتمارس الاضطهاد والاغتصاب بحق أناس بسطاء مسالمين، تحولهم من أحرار إلى أرقاء تحت رحمة وسيطرة الرجل الأوروبي، فقامت بأسر آلاف من الأهالي الذين فزعوا من أثر هذه الأسلحة النارية التي لم يسبق لهم إن رأوها أو تعرفوا عليها فلا قوة لهم في مواجهتها غير الهرب والفرار مذعورين إلى مناطق أكثر تغلغلاً في الغابات الأكثر أمناً وبعداً عن مصدر هذه الغارات الوحشية التي قام بها أبناء جنسهم خدمة لمصالح المستعمرين البرتغاليين الذين هم أول مَن بدأ بممارسة هذه التجارة سنة 1442م (الجذور التاريخية للصلات العربية الإفريقية، ص66.).

وفي بداية القرن الثامن عشر تقريباً أصبحت مساحات واسعة في منطقة جنوب نيجيريا خالية من الناس تماماً، مما أدى إلى تقليص النفوذ التجاري لمملكة بنين التي كما تقول جوان جوزيف: (وصمها التاريخ الإفريقي بعار الاشتراك مع الأوربيين في تجارة العبيد (الجذور التاريخية للصلات العربية الإفريقية، ص67).

نستنتج مما تمت الإشارة إليه من معطيات وحقائق تاريخية أن الرق وتجارة الرقيق التي نبعت من أحشائه ليست بظاهرة حديثة ولم تقتصر على شعب محدد أو منطقة محددة، بل إن الرق يشكل

مجتمعاً بأكمله ومرحلة من مراحل تطور البشرية يشغل حقبة زمنية كبيرة تمتد من نهاية المجتمع البدائى وحتى ظهور المجتمع الإقطاعي المبكر في القرن الثالث الميلادي.

وتشكل العبودية ظاهرة حتمية بالنسبة لتلك المرحلة الزمنية عندما أوجد عمل العبيد الإنتاج الزائد الذي كان السبب الرئيسي في استغلال الإنسان وجعله تابعاً للإنسان الآخر ويشكل جزءً من ملكيته الخاصة.؛ إذ لسيده الحق بالتصرف فيه كحقه بالتصرف في أشيائه الأخرى، يبيعه ويشتريه ويتاجر به ويضطهده لتوسيع ثروته وتقوية سلطته وإن عجز عن تحقيق ذلك تم قتله.

الإسلام... ومعالجته لقضية الرق:

لقد ظهر الإسلام والرق مستفحل في العالم ولعله كان في جزيرة العرب أخف وطأة من أيّ مكان آخر. لما عرف عن العرب قبل الإسلام من أخلاق في حفظ الذمم ومراعاة الجوار، وكان العبيد في الشرق يشكون من طغيان الروم والفرس واستعبادهم للناس، أما الإغريق فلم يكن عندهم الرق محرماً، ولم يكن مستنكراً وكان فيلسوفهم أرسطو يقول: (خلق العبد للخضوع والطاعة وعلى الأحرار أن يكثروا منهم) (جوان جوزيف، الإسلام في ممالك وإمبراطوريات أفريقيا السوداء، ترجمة مختار السويفي، ص112).

وقد سبق أن ذكرنا أن للرق أسباب منها:

1. الحروب
2. والفقر
3. والاختطاف.

وجاء الإسلام وهذه حال البشرية ولم يجز الإسلام من هذه الأسباب إلاّ سبباً واحداً فقط وهو الاسترقاق بواسطة الحرب، وذلك رحمة بالبشرية ؛ فإن الغالب المنتصر كثيراً ما يحمله ذلك عن الإفساد تحت تأثير غريزة حبّ الانتقام فيقتل النساء والأطفال تشفِّياً مِن رجالهم، فأذن الإسلام لأتباعه في استرقاق النساء والأطفال إبقاءً على حياتهم أولاً، وتمهيداً لإسعادهم وتحريرهم ثانياً، وأمَّا

المقاتلة من الرجال فقد خُير الإمام في المن عليهم مجاناً بدون فداءٍ وبين افتدائهم بمال أو سلاح أو تعليم أطفال وغيرها وفق ما تقتضيه المصلحة.

معاملته: لم تختل معاملة الرقيق عند الأمم كبير اختلاف إذا استثنينا أمة الإسلام ؛ فقد كان العبيد عند تلك الأمم ألاَّ يعدو أن يكون آلة مسخرة تستخدم في كل شيء، وتستعمل في كل الأغراض، زيادة على كونه يُجوَّع ويُضرب ويُحمَّل ما لا يطيقه بلا سب، كما تقطع لأتفه الأسباب، وكانوا يسمونه (الآلة ذات الروح، والمتاع القائم به الحياة).

أمَّا الرقيق في الإسلام فإنه يعامل المعاملة اللائقة بشرف الإنسان وكرامته،فقد حرم الإسلام ضربه وقتله كما حرم إهانته وسبه وأمر بالإحسان إليه (الجذور التاريخية للصلات العربية الإفريقية، ص77.).

إن أغلب المسلمين كانوا يتصدرون في معاملتهم للعبيد عن خلق إسلامي رفيع، فيأخذون على عاتقهم إطعامهم مما يطعمون وكسوتهم مما يلبسون إضافة إلى حمايتهم.

لقد كانت طريقة الإسلام في معالجة ظاهرة الرق هو أن يقضي عليه بشكل تدريجي ومن خلال تربية المسلمين على احترام الإنسان وتحديد مالَه من حقوق وما عليه من واجبات ودعا الإسلام إلى حرية الفرد وإعلان حقوق الإنسان (الجزائري، الشيخ، ابوبكر جابر، منهاج المسلم، ص569.). وخير دليل على دعوة الإسلام إلى تحرير العبيد والترغيب في ذلك، والحث عليه وذلك من خلال:

1. جعل تحريره كفارة لجناية قتل الخطأ، وكذلك لعدة مخالفات كالظهار والحنث في اليمين بالله.
2. الأمر بمكاتبة مَن طلب الكتابة من الأرقاء ومساعدته على ذلك بقسطٍ من المال.
3. جعلُ مصرف خاص من مصارف كالزكاة للمساعدة على تحرير الأرقاء.

إن أهم ما يميز الحضارة الإسلامية هو إنسانيتها ولم تكن هذه النزعة الإنسانية عند غير المسلمين وليدة فلسفات قديمة اقتبسوها من الشرق أو الغرب، وإنما كانت نزعة أصيلة في

المسلمين، ويعتبر الإسلام كرامة الإنسان هي الأساس لفكرة الحرية والإخاء والمساواة التي حسب الفرنسيون أنهم أول مَن أعلنهم في ثورتهم سنة 1789م. يقول العالم الهولندي دوزي: إن العرب لم يحكموا بتعاليم فلسفة فقط بل بالفطرة والغريزة حتى حققوا بادئ ذي بدء مبادئ الثورة الفرنسية الشريفة وهي الحرية والمساواة والإخاء). لقد كان البدوي يستمتع بحرية ليس أوسع منها على الأرض.ويقول: إن هذه المبادئ عند العرب هي أفضل مما عند الأوروبيين... وربما كانت أخلاق العرب أسمى من أخلاقنا، ونفوسهم أكبر من نفوسنا، وهم أكثر ميلاً إلى العظمة الإنسانية (الجذور التاريخية للصلات العربية الإفريقية، ص81).

وهكذا نرى أن الإسلام ومنذ ظهوره نادى بتخفيف مسألة الرق والاتجار به واعتبر ذلك أصلاً يتناقض مع سماحة الدين ومبادئه الإنسانية وكذلك كان الإسلام أول دين يخصص جزءٌ من وارداته لمكافحة الرق والقضاء عليه نهائياً.

الخاتمة والنتائج:

وفي ختام هذا البحث نستطيع القول بأن معظم الأمم والحضارات القديمة قد عرفت الاتجار بالرقيق، كما عرفته القبائل الإفريقية القديمة والحديثة كذلك، وقد اشترك العرب كذلك في هذه التجارة خاصة في شرق إفريقيا ووسطها وعلى هذا الأساس توصل البحث إلى النتائج التالية:

1. لقد كان الأسير في الحرب أهم مصدر للرق في فترة ما قبل الإسلام وفي فترة الإسلام، وأصبح في أيدي العرب عدد كبير من الأسرى نتيجة الحروب التي كانت قبل الإسلام والتي كانت في صدر الإسلام.

2. إن الإسلام لم يبالغ في نظام الرق، ولكنه اعتنى بطائفة الأسرى أيَّما عناية وأحاطها بسياج من العدل والإنصاف.
3. اقترنت تجارة الرقيق بداياتها بظهور البوادر الأولى للمجتمع الاقتصادي في الطور الأخير من المجتمع البدائي، فهي نتاج منطقي لتلك العلاقات الاقتصادية والاجتماعية السائدة آنذاك.
4. وقد مارس هذه التجارة العديد من شعوب العالم سواء في ما بينها كأبناء شعب واحد أو بين أبناء شعوب أخرى، وقد تم ذلك في آسيا وأفريقيا منذ العصور الغابرة. فلم تكن تجارة الرقيق يوماً ما قائمة أساس قضية مسلمين وغير مسلمين ولا قضية عرب وأفارقة.

فعلى هذا الأساس وبعد تناولنا لهذه المعطيات والحقائق التاريخية ومصادرها التي يمكن إليها بتقييم ظاهرة الرق وتجارة الرقيق نتوجه إلى أولئك الذين وصموا المسلمين بكل منقصة واتهموهم بأنهم أول مَن مارس هذه التجارة في أفريقيا وخاصة الأوروبيون منهم، أن ينصفوا التاريخ وهذه الحقائق التاريخية، وذلك بالعودة إلى دراسة تلك الحقبة الزمنية بصورة موضوعية وبالاعتماد على هذه الأدلة والمعطيات المقرونة بالوقائع التاريخية ؛ وبهذه المناسبة:

- إن طرح فكرة الشمال الإفريقي منطقة خارجية (عربية إسلامية) مارست الرق الإفريقي – وإن كان فيه شيء من الصحة – هي فكرة لا تقوم على أسس منطقية، فالشمال الإفريقي جزءٌ من القارة الإفريقية ومتداخل معها جغرافياً وثقافياً وتاريخياً وبشرياً وأمنياً وسياسياً، ولا ينبغي النظر على أنه جزءٌ غريب كما روجت بعض الإتجاهات المتطرفة، ومعالجة أخطائها يكون باعتبارها جزءٌ من القارة.
- وينبغي أننا في أفريقيا أن ننتبه أكثر إلى بناء الجسور بين العرب وأفريقيا، واستكشاف مزيد من الآفاق التي تتسع بإستمرار لمزيد من التعاون والتضامن،بما في ذلك إحياء الروابط بين الجامعة العربية والاتحاد الإفريقي، وذلك ضماناً لإستمرار تساند الطرفين وتأمين الجانبين ضد الأخطار المشتركة.

وهكذا يتبين أن قضية الرق قضية معقدة، وأطرافها كثيرة ومتعددة وعى الجميع التركيز على تصحيح المسار للحاضر والمستقبل، والعمل على طرح مبادرات إصلاحية جذرية تتسم بالعمق والشمول والواقعية بدلاً من الحلول الترقيعية واستئناف تجربة جديدة تعود على مصالح العالم العربي والإفريقي.

التوصية:

ينبغي على الجميع (العرب والأفارقة) التركيز على سنوات الاستعمار الغربي الذي جثم على صدر الإنسان الإفريقي وعلى القارة الإفريقية واستنزف خيراتها ونهب مقدراتها.

المصادر والمراجع:

1. ابن خلدون، المجلد الثالث.
2. احمد إبراهيم دياب، لمحات في التاريخي الإفريقي الحديث،الرياض 1981م.
3. أحمد أمين، ضحى الإسلام، الجزء الأول، القاهرة، ط 1977م.
4. الجذور التاريخية للصلات العربية الإفريقية.
5. الجزائري؛ الشيخ أبوبكر جابر،منهاج المسلم.
6. جوان جوزيف، الإسلام في ممالك وإمبراطوريات أفريقيا السوداء، ترجمة مختار السويفي، القاهرة، 1984م.
7. حسن إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، القاهرة، 1939م.
8. حميد دولاب، الجذور التاريخية للصلات العربية الإفريقية.
9. شوقي عطا الله، ود: عبد الله عبد الرزاق، تاريخ شمال وغرب أفريقيا الحديث والمعاصر.
10. عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، بغداد، ط1945م.
11. محمد جمال سرور، الحضارة الإسلامية في الشرق، القاهرة (بدون).
12. محمد عبد الغني سعودي، قضايا أفريقيا، الكويت، ط، 1980م.

13. محمد كرد علي، الحضارة الإسلامية، القاهرة، الجزء الأول.
14. محمود أوبو العينين، العقل الأفريقي والعبودية، المؤتمر الدولي، الإسلام في إفريقيا، 26- 27 نوفمبر، 2006م، الكتاب السابع.
15. المؤتمر الدولي، الإسلام في إفريقيا.